

قبله من نوح مفتتح الرسالات: ﴿قَالُوا أَنْوُمِنُ لَكَ وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴿١﴾ وإلى غيره من رسل الله!

يطلب من الرسول هكذا فيرفض كما أمر الله قائلاً: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا والممات» ﴿٢﴾ ولقد كان يجامل فقراء المؤمنين ويكرمهم طول حياته المنيرة على ميزانية تقواهم.

وهل أن الرسول ﷺ حدثه نفسه فيما طلبوا إليه رغبة في إيمانهم كما يدعون؟ هذا بعيد عن ساحته وغريب عن أخلاقه وسماحته ﴿وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣﴾ وكيف يطرد المؤمنين رغبة في إيمان المستكبرين، ثم وأين إيمان من إيمان لو صدقوا وآمنوا! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم!.

إنما يأمره ربه بما يأمر وينهاه عما ينهى تثبيتاً للمؤمنين وتنديداً

= جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله: «ورتل ما أوحى» . . إلى قوله: ﴿اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ .

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١١١-١١٤ .

(٢) المصدر أخرج أبو الشيخ عن سلمان قال: قام رسول الله ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله فقال: . . وأخرج عبد بن حميد عن سلمان قال: نزلت هذه الآية في رجل دخل على النبي ﷺ ومعني شن خوص فوضع مرفقه في صدري فقال: تنح حتى ألقاني على البساط ثم قال: يا محمد! إننا ليمنعنا كثير من أمرك هذا وأضرباءه أن ترى لي قدماً وسواداً فلو نحيتهم إذا دخلنا عليك فإذا خرجنا أذنت لهم إذا شئت، فلما خرج أنزل الله ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ - إِلَى - فُرُطًا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عمر بن زر عن أبيه أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من أصحابه منهم عبد الله بن رواحة يذكروهم بالله فلما رآه عبد الله سكت فقال له رسول الله ﷺ: ذكرك أصحابك، فقال: يا رسول الله ﷺ! أنت أحق! فقال ﷺ: أما إنكم الملاء الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معهم ثم تلا ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ . . .﴾ .

(٣) سورة القلم، الآية: ٤ .

بالمستكبرين، وتبعيداً لهم عن اقتراحهم عليه من طرد المؤمنين، لا أنه طرد ثم نهى! ف ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) ﴿... وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (٢) ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) وهو ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ...﴾ (٤)! ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ (٥)!

فإنه لا تقوم الدعوات الرسالية إلا على من يعتنقونها إيقاناً وإيماناً مهما كانوا فقراء دون من يعتورونها متاجرين بها يمشون معها ما تمشيهم في شهواتهم فإذا محصوا بالبلاء قلَّ الديانون!

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وكيف «نفسك» مفعولاً والصبر لازم حيث يتعدى بواسطة؟ إن الصبر وهو الحبس متعدٍ إلى مفعول محبوس به، مهما يتعود تعديته بمحبوس فيه أو عليه أو معه أم ماذا؟ فاصبر نفسك في الحياة الدنيا على مشاقها وحرماناتها ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ﴾ صبراً في الله والله وإلى الله!

كل إمساك واحتباس في ضيق صبر، منه ممدوح ومنه غير ممدوح، والصبر مع المؤمنين احتباس للنفس عن الشهوات وتحرير لكافة الطاقات النفسية في التقدم معهم إلى قمة الإيمان بمواصلة المجاهدات وتحمل الحرمانات!

وما هي النفس المحمدية المأمورة بالصبر معهم؟ إنها كله ﷺ من روحه وجسمه، بعقله وصدره وقلبه، في حله وترحاله، وعلى كل حاله،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦١.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

فكما يصبر في الله في أوامره ونواهيه وفي قوله الثقيل كذلك مع الذين يدعونه بالغداة والعشي يريدون وجهه، يحملهم ويتحملهم يهديهم ويذود عنهم، يجاريهم ويداريهم ولا يفضل عليهم ولا يسوي بهم!

أجل ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

ولماذا تطردهم وهم مؤمنون؟ أرغبة في إيمان من يتأنفون عنهم، والإنذار لا يفيدهم ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاِلٰهٌُ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢)!

ترى وماذا تعني ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ حيث يدعون بهما ربهما؟ لأنهما وقت الصلاة بداية الفرض في العهد المكي طرفي النهار كما في مكيات أخرى ﴿وَأَسْتَعْفِرُ لَدُنْكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٣) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾ (٤)؟ ولا بد في سمة الإيمان دوامتها والفرض في المدينة خمس وعلى طول الخط، فليقل: مع المصلين لتشمل الفرض مكياً ومدنياً! وآية العشي والإبكار لا تخص المكي، بل والمدني أيضاً ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٥) وكما الكهف علها مدينة أو البعض من أيها وعلها منها!

أم لأن الغداة هي الوقت الذي يتنقل فيه الإنسان من نومه إلى يقظته، والعشي تنقلاً من يقظته إلى نومه، وهما يذكّران الحياة بعد الموت ثم الموت بعد الحياة، وهما ركنا أوقات الليل والنهار. فذكرهما أهم الذكر!

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

إذا فهما يعينان أهم الأوقات من الليل والنهار، فالغداة صباح والعشي عصر إلى ليل، وكما هما في الجنة والنار ركنان في رحمة وعذاب: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(١) ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(٢) فهما أهم أوقات الذكر وسواه وفيما مضى كما هنا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٣) لا فحسب الإنسان فالجبال أيضاً: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(٤).

ثم وفي ردف العشي بالإشراق والغدو بالعشي - على كونهما ركني الأوقات - عطف إلى ما بينهما من أوقات الليل والنهار، إلا فيما يخصهما بقرينة كرزق البرزخ وعذابه، فالغداة والعشي في ذكر الرب ودعوته تعني الغداة إلى العشي والعشي إلى الغداة كما يقال «أنا دارس صباح مساء» أو «ضارب أعداء الله ظهر بطن».

فدعوة الرب هي حالهم ومقالهم، حلهم وترحالهم، غداتهم وعشيهم بما فيها الفرائض الخمس^(٥) كأركان الدعوات وتلحقها سائرهما، كما الغداة والعشي من أركان الأوقات وتلحقها سائرهما.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ... يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ وماذا يعني «وجهه»؟ هنا وجهه

(١) سورة مريم، الآية: ٦٢.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ١١.

(٤) سورة ص، الآية: ١٨.

(٥) الدر المنثور ٤: ٢٢٠ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن إبراهيم ومجاهد في الآية قالوا: الصلوات الخمس وفي نور الثقلين ٣: ٢٥٨ عن تفسير العياشي عن زرارة وحمران وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ... بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] قال: «إنما عنى بها الصلاة».

الرب كما في عديد سواه^(١) وهناك وجه الله كما في عديد سواه^(٢) وبينهما فرق كما بين وجه الله وسواه.

والوجه من كل شيء ما يواجه شيئاً أو يواجه بشيء، فيختلف حسب اختلاف الأشياء والمواجهات، فلا يقاس وجه الرب الإله بسائر الوجه، كما لا تقاس إقامة الوجه إليه وتسليمه لديه بسائر الوجه.

فوجه الرب هو الوجهة التربوية التي يواجهه الله بها خليقته يوم الدنيا والآخرة، ويواجهونه بها في الدنيا والآخرة، فوجه الله من الوجهة التشريعية يدعون ربهم بالغداة والعشي، وبهذه الدعوة يريدون الوجهة التربوية ليوم الدنيا تقرباً إليه وتكرماً لديه، وحظوة مما عنده من حياة إيمانية، فالمؤمن دنياه آخرة! وليوم الآخرة الوجهة التربوية ثواباً عند الرب وزلفى، واجهات خمس هي كلها وجه الرب^(٣) حيث يريدونه بدعوتهم ربهم بالغداة والعشي! كما ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٤) يعني الوجهة التربوية الأخروية التي تخصصها دون الدنيا، والدينية تخصصها دون الأخرى! فليس وجه الرب وجهاً عضويّاً لذاته المقدسة، فلا أحد يقول به، ولا من المشبهة المجسمة، الذين يشبّون الله سبحانه أبعاضاً مؤلفة وأعضاء مُصَرَّفَة، ومن ثم لوجه الله معنى غير ما يعنيه وجه الرب على اشتراكهما في وجه.

(١) كما في ١٣ : ٢٢ : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ - و ٥٥ : ٢٧ : ﴿وَيَتَّبِعْ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ - و ٩٢ : ٢٠ : ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ - و ٥٢ : ٦ : ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ - فالمجموع خمسة موارد.

(٢) كما في ٢ : ١١٥ : ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ - و ٢٧٢ : ٢ : ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ - و ٣٠ : ٣٨ : ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ و ٢٨ : ٨٨ : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

(٣) فللرب وجه يوم الدنيا : شرعته - التقرب إليه بها - الحظوة بهما يوم الدنيا - ووجه يوم الآخرة - قرباه الحظوة الثواب.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

فلأنك كأول العابين وكرسول لا تعني من الحياة جاهاً ولا متاعاً ولا عرضاً من الحياة الدنيا، وإنما وجه ربك، فاصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه، تناسباً فتناسقاً وتناصرأ في هذه السبيل.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾:

العينان لهما عدو ومد، وعينا أهل الله لا تمدان إلى غير الله وأهله، وما سوى الله كله الحياة الدنيا: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَنَّ عَلَيْهِمْ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) ... مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٢).

وإنما هما ناظرتان ناظرتان إلى الرب والذين يدعونه يريدون وجهه، منحصرتان بهم منحصرتان عن سواهم.

وهل ﴿عَيْنَاكَ﴾ هما الظاهرتان الباصرتان؟ ومدَّهما إليهم دون رعاية ورقابة ومرحمة ليس مد الرسول ﷺ! أم هما عينا عقله وقلبه، فبعقل الوحي يعقلهم عما لا يحمد، وبعين القلب يحبهم أم ماذا؟ ولا يكفیان مداً، والباصرتان الظاهرتان تعدوانهم إلى سواهم! أم هما عينا القلب بما معه، والقالب بما معه، أن يكرس نفسه بطاقتها وإمكانياتها نظرة ناضرة إليهم، مراقبة عليهم؟ وهو جمع جميل والله على ما نقول وكيل!

﴿... وَلَا نُطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبُهُ عَن دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾:

وهل أن إغفاله سبحانه قلباً يعني وجدانه غافلاً فهو في الحق غافل عاطل، كما يقال «الله دركم يا بني سليم! والله لقد قاتلناكم فما أجبناكم

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣١.

وهاجيناكم فما أفحمناكم وسألناكم فما أبخلناكم» أي: لم نجدكم جبانين عند النزال ولا أعياء عند المقال ولا أبخال عند السؤال^(١).

وذلك احتشاماً عن أن يُغفل الله قلباً وهو مذكر لا مُغفل؟ ولكننا الصحيح والفصيح للتدليل على هذا المعنى لفظه الخاص ك (وجدنا قلبه غافلاً) ك ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٢) دون أصبرناه.

ثم الإغفال لا يختص المسير، أن يُغفل الله قلباً دونما اختيار منه وتقصير، بل إنه غفلة معمّدة ثم إفعال ومن ثم إغفال فامتناعاً للذكر بتعمد واختيار: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٣) . . . وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٦٨﴾^(٤).

فالمتغافلون الغافلون الدائبون في غفلتهم وغفوتهم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾^(٥) أولئك هم الغافلون الذين غفلوا عامدين فأغفل الله قلوبهم عن ذكره طبعاً عليها وختماً.

ثم ترى أن إغفاله لقلوبهم هو تركه لهداها أن ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٦) وفي غيهم ووعيهم يترددون، ف ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾: تركناه غفلاً من السمات والكتابات الإيمانية، ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمُ

(١) مجازات القرآن وتلخيص البيان للسيد الشريف الرضي ينقله عن عمرو بن معد يكرب لبني سليم ص ٢١٢.

(٢) سورة ص، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

(٤) سورة النحل، الآيات: ١٠٦ - ١٠٨.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.

بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿١﴾ وهم خلو القلوب منها، وكما يقال: أغفل البعير: تركه بلا سمة يعرف بها على عادة العرب في إقامة السمات مقام العلامات، اللهم إلا الطبع والختم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢﴾؟ ومجرد الترك وإن كان ينتج بقاء الغفلة ولكنه ليس إغفالاً، فإنه إيجاد للغفلة بعد الذكر، أم غفلة على غفلة!

أم إنه مزيد في غفلة معقدة معاندة أن تستمر فتزيد جزاءً وفاقاً في الدنيا وفي الآخرة عذاب أليم: إن الله أقفل قلوبهم عن الذكرى فأغفلها استمراراً فيها فمزيداً عليها ﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ بعد الإغفال كما قبله وأكثر دونما تفكير في هداه ﴿وَكَاثَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قبل الإقفال والإغفال، حيث الغفلة المعقدة دركات بعضها فوق بعض، فأغفالها على حسبها دركات بعضها فوق بعض، آخذة من ترك التوفيق، فختم وطبع فدفن إلى مزيد من الغفلة وهو الدرك الأسفل من الإغفال.

وقد يعني ﴿أَغْفَلْنَا﴾ هنا كل هذه مترتبة: إن وجدنا قلبه غافلاً عن عمده فلما استمر في غفلته تركناه على غفلته وحتى شرح بالكفر صدرأ فطبعنا على قلبه حتى لا يسطع الرجوع عن غفلته، إذ كان له قبل طبعه الرجوع إلى ربه ثم يمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿وَكَاثَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قبل أن أغفلنا قلبه واتبع هواه من قبل ومن بعد في تزايد دركاته، وما أجمله جمعاً بين معان مترتبة يقتضيها أدب اللفظ وواقع المعنى! .

اتباع الهوى على غفلة معقدة وأمر فرط مضيع يتبعه جزاءً له إقفال القلب فأغفاله فاتّباع مفرط للهوى وأمر فرط في اتباع الهوى! ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ ﴿٤﴾!

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٥ .

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٩ .

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٩ .

لا تطع - وإن كانت رجاء لاهتدائهم - من غفلوا عن أنهم عبيد وهو ربهم فأغفلنا قلبه عن ذكرنا فلم يطامنوا من نخوتهم ولا خففوا من غلوائهم، ولم يستشعروا جلال الله الذي تتساوى في ظله العباد إلا من التقي أو هو أتقى! .
ذلك القلب المقلوب، المليء من الشهوات والطنطنات، في أمرٍ من فرطات، إنه ليس قلب إنسان، بل هو مريض الحيوان ومزبل الشيطان! «لا تطع...» .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٢٩) :

آية محكمة تحكم عرى الاختيار وتجتث جذور الإجبار «فمن شاء... .
ومن شاء» فمشية الإيمان والهدى تجلب زيادة الهدى من الله واستمراريتها: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ (١) كما مشية اللاإيمان والردى تجلب غفلة دائبة أو زيادتها بإغفال من الله .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ حيث يريكم دلالة فتوفيقاً للهدى فمن شاء وتقبل الحق يثبته عليه ويزيد، ومن لم يشاء وأعرض عن الحق يختم على قلبه ويغفله، فإنه ظالم في نكران الحق، يظلم نفسه ويظلم الحق وأهله، ليس الحق ملكاً لأحدٍ ولا مخولاً فيه لأحد حتى يجامل فيه فيماري ويداري ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ! فالحق - إذاً - لا يعتز ولا ينتصر بمن لا يبغونه إلا عوجاً، وإنما يعزّ وينصر من يبغونه خالصاً بلا تجوير ولا تحوير، والذي يترفع عن الذين يبغونه ناصحاً ناصعاً لا يرجى منه أي خير ولا لنفسه فضلاً عن قبيل الإيمان! .

إنه لا حقّ لائقاً غير زائف ولا خليطاً بغير حق إلا من ربكم، والخطأ

(١) سورة محمد، الآية: ١٧ .

جائر كائن لغيره أياً كان إلا من عصمه ربه بوحيه، فلا تطلبوا مني دخلاً في حقه ولا بخلاً وانحصاراً في مواجهة حقه - وهذا ختام الكلام ومن ثم .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . . ﴾ :

السرادق هو الفسطاق وسرادق النار هو زبانيته المحيطة والمشملة على أهلها . فلا ينجو منها ناج ولا يطلق منها عان حيث ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (١) حسباً يحصرهم وطولاً يقصرهم ف ﴿ إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴾ (٨) في عمدة مُمدّدة ﴿ ٩ ﴾ ﴿ ٢ ﴾ فسطاق من نار هي حصير مؤصدة : مغلقة مطبقة .

هذا وكما أحاطت بهم سرادقات نيران الشهوات وحصرتهم في دنيا الحياة فهي هي تتمثل سرادق في الحياة الأخرى .

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا ﴾ على إياسهم من مُغيث، ولكنما الحالة تلك المزرية المضطربة قد تدعوهم أن يستغيثوا ﴿ يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ : دردي الزيت المغلي ﴿ يَشْوَى الْوُجُوهُ ﴾ بمواجهته قبل شربه، وهل يشربونه . وهو كالمهل؟ أجل (٣) ! لأن الإغاثة ليست فقط عرضاً للماء وإن لم يشربوا بل هي إشراب

(١) سورة الإسراء، الآية : ٨ .

(٢) سورة الهمزة، الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٣) نور الثقلين ٣ : ٢٦٠ ح ٧٩ في تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : ﴿ يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] قال : تبدل خبزة نقيه يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب فقال له قائل : إنهم يومئذ في شغل عن الأكل والشرب؟ فقال عليه السلام له : إن ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام والشراب، أهم أشد شغلاً أم هم في النار فقد استغاثوا ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إن أهل النار لما غلى الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق وصيد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ وحميم يغلي به جهنم منذ خلقت كالمهل يشوي الوجوه بشس الشراب وساءت مرتفقاً .